وقعة الحُدَيْبِيَة

في ذي القعدة سنة ٦ هـ

سبب الغزوة:

لقد رأى الرسولُ ﷺ رؤياه التي قال الله عنها: ﴿**لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا**﴾[١].

رأى الرسولُ ﷺ في منامه أنَّه يدخل المسجد الحرام وأصحابُه آمنين مُحَلِّقين رؤسَهم ومُقصِّرين.

فأخبرهم ﷺ بنيَّة العُمرة - ورؤيا الأنبياء حَقٌّ - فخرجوا لذلك، وساق أمامَه الهَدْيَ[٢] بُرهاناً على النيَّة والقَصْد أنَّ المسلمين ما خرجوا إلاَّ لإرادة العُمرة.

لكنَّ قريشاً منعت المسلمين من دخول مكة، وكان من نتيجة ذلك «بَيْعة الرضوان» التي قال الله عنها: ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا**﴾[٣] وانتهت بصلح الحُدَيْبِيَة[٤].

فهل كانت الحُدَيْبِيَة - بما تمَّ فيها - فَتْحاً؟

ذاك ما نقف عليه ونراه كيف كان فتحاً مُبيناً.

---

(١) الفتح: ٢٧.

(٢) الهَدْي: ما يُهْدَى من النَّعَم إلى الحرم تقرباً إلى الله تعالى.

(٣) الفتح: ١٨.

(٤) الحُدَيْبِية: قرية متوسطة سُمِّيَت ببئر هناك، وقيل سُمِّيَت بذلك نسبة إلى شجرة حدْباء كانت في ذلك الموضع

يقول الزهري فيما ذكره ابن إسحاق:

فما فُتِح في الإسلام فتحٌ قبلَه كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهُدنة، ووُضعَت الحرب، وأَمِنَ الناسُ بعضُهم بعضاً، والتَقَوا فَتَفَاوضوا في الحديث والمُنَازعة، فلم يكلَّم أحدٌ بالإسلام - يعقلُ شيئًا - إلاَّ دخل فيه، ولقد دخل في تَيْنَك السَّنتين مثلُ مَنْ كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر.

قال ابن هشام: والدليل على قول الزهري أنَّ رسول الله ﷺ خرج إلى الحُدَيْبيَة في ألفٍ وأربع مئة في قول جابر، ثُمَّ خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف.

ولكنْ لماذا ذُكرت بيعة الرضوان هنا؟ وما سببُها؟ وما الذي جرى فيها؟ وما الذي يُؤخَذُ منها؟

بيعة الرضوان:

خرج الرسولُ ﷺ بمَنْ معه من المسلمين، فلما كانوا بـ «ذي الحُلَيْفَة»[١] قَلَّد رسول الله ﷺ الهَدْي وأشعره[٢] وأحرم بالعُمرة، وبعث بين يديه عيْناً له من خُزَاعَةَ يُخبره عن قريش.

حتَّى إذا كان قريباً من عُسْفَان، أتاه عينُه فقال: إني تركتُ كعبَ بنَ لؤي قد جمعوا لك الأحابيش، وجمعوا لك جموعاً، وهم مقاتلوك وصادُّوك عن البيت الحرام.

فسار النبيُّ ﷺ حتَّى إذا كان بالثنية التي يُهْبَط عليهم منها، بَرَكت به راحلتُه، فقال الناسُ: حَلْ، حَلْ، فألحَّت[٣] فقالوا: خَلأَت[٤] القَصْواء، خلأت القَصْوَاءُ.

---

(١) ذو الحليفة: قرية بينها وبين المدينة ستة أميال أو سبعة ومنها ميقات أهل المدينة.
(٢) إشعار الهَدي: جرحها ليسيل دمها دلالة على كونها هدي.
(٣) ألحَّت: لزمت مكانها ولم تتحرك.
(٤) خلأت: امتنعت عن المشي.

فقال النبي ﷺ: «ما خَلأَتِ القَصْوَاء، وما ذاك لها بِخُلُق، ولكن حبَسَها حابسُ الفيل».

ثم قال ﷺ: والذي نفسي بيده، لا يسألوني خُطَّةً يُعظِّمُون فيها حُرماتِ الله، إلا أعطيتُهم إياها»

ثم زجرها، فوَثبت به، فعدل حتَّى نزل بأقصى الحُدَيْبيَة على ثَمَد[1] قليل من الماء إنما يتبرَّضُه الناس تبرُّضاً[2] فلم يُلبثْه الناس أن نزحوه، فَشَكَوْا إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع سهماً مِنْ كِنَانَتِه، ثُمَّ أمرهم أن يجعلوه فيه.

قال: فوالله، مازال يجيش لهم بالرِّي حتَّى صَدَرُوا عنه.

وفزعت قريش لنزوله عليهم، فأحبَّ رسولُ الله ﷺ أن يبعث إليهم رجلاً من أصحابه، فدعا عمر بن الخطاب ليبعثه إليهم، فقال: يا رسول الله، ليس لي بمكة أحدٌ من بني كعب يغضب لي إن أُوذيتُ، فأرسل عُثمانَ بن عفان؛ فإنَّ عشيرتَه بها، وإنَّه مُبلِّغ ما أردتَ.

فدعا عثمانَ بنَ عفان، فأرسله إلى قريش، وقال ﷺ: أخبرهم أنَّا لم نأت لقتال، وإنما جئنا عُمَّارًا، وادعُهم إلى الإسلام.

وأمره أن يأتي رجالاً بمكة مؤمنين ونساءً مؤمنات، فيدخُلَ عليهم، ويبشرهم بالفتح، ويخبرهم أنَّ الله عز وجل مظْهِرٌ دينَه بمكة؛ حتَّى لا يُستَخْفَى فيها بالإيمان.

فانطلق عثمان رضي الله عنه فمَرَّ على قريش ببلدح[3] فقالوا: أين تريد؟

فقال: بعثني رسولُ الله ﷺ أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام، وأُخبركم أنَّا لَمْ نَأتِ لقتال، وإنما جئنا عُمَّارًا.

---

(١) الثمد: الحوض.

(٢) يتبرَّضُه الناس تبرُّضاً: أي يأخذون منه قليلاً قليلاً، والبَرَضُ: اليسير من العطاء.

(٣) بلدح: واد قبل مكة من جهة المغرب.

فقالوا: قد سمعنا ما تقول، فانْفُذ لحاجتك.

وقام إليه إبانُ بن سعيد بن العاص فرَحَّبَ به، وأسَرجَ فرسَه، فحمل عثمانَ على الفرس وأجاره، وأردفَهُ أبان حتَّى جاء مكة، وقال المسلمون قبل أن يرجع عثمان: خَلَصَ عثمان قبلنا إلى البيت وطافَ به.

فقال رسول الله ﷺ: ما أظنُّه طاف بالبيت ونحن محصورون.

فقالوا: وما يمنعه يا رسول الله، وقد خَلَصَ؟

قال: «ذلك ظنِّي به ألاَّ يطوف بالكعبة حتَّى نطوف معه»

وبلغ رسولَ الله أنَّ عثمانَ قد قُتلَ، فدعا ﷺ إلى البَيْعة، فثار المسلمون إلى رسول الله ﷺ وهو تحت الشجرة فبايعوه على ألاَّ يفرُّوا، فأخذ رسولُ الله ﷺ بيد نفسه، وقال: «هذه بيعة عثمان»

ولما تمَّت البيعةُ رجع عثمان، فقال له المسلمون: اشتفيتَ يا أبا عبدالله من الطواف بالبيت.

فقال رضي الله عنه: بئس ما ظننتم بي، والذي نفسي بيده، لو مكثتُ بها سنةً، ورسول الله ﷺ مقيم بالحديبية ما طُفْتُ بها حتَّى يَطُوفَ بها رسولُ الله ﷺ، ولقد دعتني قريشٌ إلى الطواف بالبيت فأبيتُ.

فقال المسلمون: رسول الله كان أعْلَمَنا بالله، وأحسننا ظنًّا.

رُسُل قريش إلى النبي ﷺ:

وكان عمر آخذاً بيد رسول الله ﷺ للبَيْعة تحت الشجرة، فبايعه المسلمون كُلُّهم إلاَّ الجدَّ بنَ قيس.

فبينما هم كذلك إذ جاء بُدَيلُ بن ورقاءَ الخزاعي في نَفَرٍ من خُزَاعة فقال:

إني تركتُ كعبَ بن لؤي، وعامر بن لؤي، نزلوا أعدادَ مياه الحُدَيْبيَة، معهم العُوذُ المطافيل[١] وهم مقاتلوك وصادُّوك عن البيت.

فقال رسول الله ﷺ: إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكن جئنا مُعتمرين، وإنَّ قريشًا قد نَهَكَتْهُم الحربُ وأضَرَّت بهم، فإنْ شَاءوا مادَدْتُهم وَيُخَلُّوا بيني وبين الناس، وإن شاءوا أن يدخُلُوا فيما دَخَل فيه الناسُ فَعَلوا، وإلاَّ فقد جَمُّوا[٢] وإنْ هم أبَوْا إلا القتال، فوالذي نفسي بيده لأقَاتِلَنَّهم على أمري هَذَا حتَّى تنفرد سَالِفَتِي[٣] أو لَيُنْفِذَنَّ الله أمرَهُ.

قال بُدَيل: سأبلغهم ما تقول.

فانطلق حتَّى أتى قريشاً، فقال: إني قد جئتكم من عند هذا الرجلَ، وقد سمعتُه يقول قولاً، فإن شئتم عرضتُه عليكم.

فقال سفهاؤهم: لا حاجَة لنا أن تُحَدِّثَنَا عنه بشيء.

وقال ذووا الرأي منهم: هاتِ ما سمعتَه.

قال: سمعتُه يقول: كذا وكذا، فحدَّثهم بما قال النبيُّ ﷺ.

قال عروةُ بن مسعود الثقفي: إنَّ هذا قد عَرَضَ عليكم خُطَّةَ رُشْد فاقبلوها، ودعوني آتِه.

فقالوا: ائته. فَأتاه فجعل يكلِّمُه.

فقال له النبي ﷺ نحوًا من قوله لِبُدَيل.

فقال له عروةُ عند ذلك: أَيْ محمد: أرأيتَ لو استأصلتَ قومَك، هل سمعتَ بأحد من العرب اجتاح أهلَه قبلك؟ وإن تكن الأخرى فوالله، إني لأرى وجوهاً وأرى أوشاباً[٤] من الناس خليقاً أن يَفِرُّوك ويدعوك.

---

(١) العوذ: جمع عائذ وهي الناقة ذات اللبن، والمطافيل: النُّوق التي معها أبناؤها.

(٢) جَمُّوا: استراحوا من جهد الحرب.

(٣) السالفة: صفحة العنق، والمراد «أُقْتَل.

(٤) أوشاباً: أي أخلاطاً.

فقال له أبوبكر رضي الله عنه: امصُصْ بَظْر اللاَّتِ[١] أنحن نفرُّ عنه ونَدعه؟!

قال: من ذا؟

قالوا: أبو بكر.

قال: أما والذي نفسي بيده، لولا يَدٌ كانت لك عندي، لم أُجْزِكَ[٢] بها لأجبتُك وجعل يُكلِّم النبي ﷺ، وكلَّما كلَّمه أخَذَ بلحيته، والمغيرة بن شعبة عند رأس النبي ﷺ ومعه السيفُ، وعليه المغفَرُ، فكُلَّما أهوى عروةُ إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنَصْل السيف، وقال: أخِّر يَدَك عن لحية رسول الله ﷺ فرفع عروةُ يده، وقال: مَنْ ذا؟

قالوا: المغيرةُ بن شعبة.

فقال: أي غُدَرُ، أولَستُ أسعى في غَدرتك؟

وكان المغيرةُ صَحِبَ قومًا في الجاهلية، فقتلهم وأخذ أموالهَم، ثُمَّ جاء فأسلم، فقال النبي ﷺ: «أما الإسلامُ فَأَقْبَلُ، وأما المالُ فلست منه في شيء»

ثم إن عروةَ جعل يَرْمُقُ أصحابَ رسول الله بعينيه، فوالله ما تنخَّم[٣] النبيُّ نُخَامةً إلا وقعت في كفِّ رجلٌ منهم، فَدَلَكَ بها جِلْدَه ووجهَهُ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره[٤] وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وَضوئه، وإذا تكلَّم خفضوا أصواتَهم عنده، وما يُحِدُّون إليه النظر تعظيمًا له.

فرجع عروةُ إلى أصحابه، فقال:

أيْ قوم، والله لقد وفدتُ على الملوك، على كسرى وقيصر والنجاشي، والله ما رأيت مَلِكًا يُعظِّمُه أصحابُه كما يُعظِّم أصحابُ محمدٍ محمداً، وقد عرض عليكم خُطَّةَ رُشْدٍ فاقبلوها.

---

(١) العبارة قيلت للإهانة والاحتقار.

(٢) الجزاء: المكافأة والمثوبة.

(٣) تنخم: أي دفع بشيء من صدره أو أنفه، واسم ذلك الشيء «النُّخامة»

(٤) ابتدروا أمره: أي أسرعوا إلى تنفيذه.

فقال رجل من كنانة: دعوني آتِه، فقالوا: ائتِه، فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه، قال رسول الله ﷺ: هذا فلانٌ، وهو من قومٍ يعظّمون البُدْنَ، فابعثوها له.

فبعثوها له، واستقبَله القوم يُلبُّون، فلمَّا رأى ذلك قال:

سبحان الله! ما ينبغي لهؤلاء أن يُصَدُّوا عن البيت.

فرجع إلى أصحابه فقال: رأيتُ البُدْنَ قد قُلِّدَت وأُشعِرت، وما أرى أن يُصَدُّوا عن البيت.

إبرام معاهدة الصُلح:

أرسلت قريش «سهيل بن عمرو» للتفاوض مع رسول الله ﷺ على شروط الصلح والتوقيع على المعاهدة.

فلما رآه النبي ﷺ قال: قد سُهِّلَ لكم من أمركم،

فقال سهيل: هاتِ أكتب بيننا وبينكم كتاباً.

فدعا النبيُ ﷺ الكاتب: فقال: اكتُب بسم الله الرحمن الرحيم.

فقال سُهيل: أمَّا الرحمن فوالله، ما ندري ما هو، ولكن اكتب «باسمك اللهم» كما كنتَ تكتُب.

فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا باسم الله الرحمن الرحيم.

فقال النبي ﷺ: اكتب باسمك اللهم.

ثم قال: اكتب هذا ما قاضي عليه محمدٌ رسولُ الله

فقال سُهيل: فوالله، لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صَدَدْنَاك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبدالله.

فقال النبي ﷺ: إني رسولُ الله وإن كذَّبتموني، اكتب محمد بن عبدالله،

فقال النبي ﷺ: على أن تُخَلُّوا بيننا وبين البيت فنطوفَ به

فقال سهيلُ: والله لا تتحدثُ العرب أنَّا أُخِذْنا ضغطَةً، ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب.

قال سهيل: على أن لا يأتيك منا رجلٌ - وإنْ كان على دينك - إلا رددتَه إلينا.

وهكذا جرى الصُّلح بين المسلمين وأهل مكة على وَضْع الحرب عشر سنين، وأنْ يأمن الناسُ بعضُهم من بعض، وأنْ يرجع الرسولُ ﷺ ومَنْ معه عنهم عامَه هذا، حتَّى إذا كان العامُ المُقبل، قَدِمها وخَلَّوا بينه وبين مكة، فأقام فيها ثلاثاً، وأن لا يدخلها إلا بسلاح الراكب والسيوف في القرب.

ردّ أبي جندل إلى المسلمين:

فبينا هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل ابن عمرو يَرْسُفُ في قيوده[1] قد خرج من أسفل مكة حتَّى رمى بنفسه بين ظهور المسلمين

قال سهيل: هذا يا محمدُ أول ما أقاضيكَ عليه أن تَرُدَّه إليَّ.

فقال النبي ﷺ: إنا لم نفض الكتاب بعد.

فقال سهيل: فوالله، إني لا أصالحك على شيءٍ أبدًا.

فقال النبي ﷺ: فَأجِزْه لي.

قال: ما أنا بمُجيزه لك.

قال: بلى فافعل.

---

(١) يرسُف في قيوده: أي مَشَى مشْيَ المُقيَّد.

قال: ما أنا بفاعل.

فقال أبو جندل: يا معشر المسلمين، أُرَدُّ إلى المشركين وقد جئت مسلماً، ألا ترون ما لقيتُ؟! وكان قَدْ عُذِّب في الله عذَاباً شديداً.

قال عمرُ بن الخطاب: والله، ما شككت - منذ أسلمتُ - إلاَّ يومَئِذ، فأتيت النبي ﷺ: فَقُلْتُ: يا رسول الله، ألستَ نبي الله حقّاً؟

قال: بلى.

قلت: أَلَسْنا على الحق وعدوُّنا على الباطل؟

قال: بلى.

فقلت: عَلامَ نُعْطي الدَّنيَّةَ في ديننا إذًا؟ ونرجعُ ولما يحكمُ الله بيننا وبين أعدائنا؟

فقال: إني رسولُ الله، وهو نَاصري، ولَسْتُ أعْصِيه.

قلت: أَوَلَسْت كنتَ تحدثنا أنَّا سنأتي البيت ونطوف به؟

قال: بلى، أفأخبرتُك أنك تأتيه العام؟

قلت: لا.

قال: فإنَّك آتيه ومُطَوِّفٌ به.

قال: فأتيت أبا بكر، فقلتُ له كما قلتُ لرسول الله، وردَّ عليَّ أبو بكر كما ردَّ عليَّ رسولُ الله ﷺ سواء، وزاد: «فاستمسك بِغَرْزه حتَّى تَموتَ، فوالله، إنَّه لعَلَى الحق».

قال عمرُ: فعملتُ لذلك أعمالاً، أي: أعمالاً صالحة ليُكَفَّر عنه ما حضر من التوقف في الامتثال ابتداء.

وفي رواية ابن إسحاق:

وكان عمرُ يقول: «ما زلت أتصدَّقُ وأصومُ وأصلي وأعتق مِن الذي صنعتُ يومئذ؛ مخافة كلامي الذي تكلمتُ به»

تباطؤ المسلمين في الحلق والنحر:

فلما فرغ النبي ﷺ من قضية الصلح قال: قُوموا فانحروا، ثُمَّ احْلِقُوا فوالله، ما قام منهم رجلٌ واحدٌ حتَّى قال ذلك ثلاثَ مرات.

فلمَّا لم يَقُم منهم أحدٌ، قام فدخل على أمِّ سَلَمَة، فذكر لها ما لَقِيَ من الناس.

فقالت أمُّ سَلَمَة: يا رسول الله: أتُحبُّ ذلك؟ اخرج ثُمَّ لا تكلِّم أحداً منهم كلمةً حتَّى تنحر بُدْنَك وتدعو حَالِقَك فَيَحْلِقَك.

فلم يُكلِّم رسول الله ﷺ أحدًا منهم حتَّى فعل ذلك، فلما رأى الناسُ ذلك، قاموا فنحروا، وجعل بعضُهم يَحْلِقُ بعضاً حتَّى كاد بعضُهم يقتُلُ بعضًا غَمًّا.

ثُمَّ رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، وفي مرجعه أنزل الله عليه:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾[1].

فقال عمرُ: أَوَفَتْحٌ هو يا رسولَ الله؟

قال: نعم.

فقال الصحابةُ: هنيئًا لَكَ يا رسولَ الله، فما لَنَا؟

فأنزل الله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

---

(١) الفتح: ١ - ٣.

(٢) الفتح: ٤.

إسلام أبي بصير:

ولما رجع النبي ﷺ إلى المدينة، جاءه أبو بصير - رجلٌ من قريش - مُسلماً، فأرسلوا في طلبه رجلين وقالوا: العهدَ الذي جعلتَ لنا، فدفعه إلى الرَّجُلين، فخرجا به حتَّى بلغا ذا الحليفَةَ، فنزلوا يأكلون من تَمْرٍ لهم.

فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله، إني لأرى سيفَك هذا جَيِّدًا، فاستَلَّهُ الآخر فقال: أجَلْ والله، إنَّه لجَيدٌ، لقد جرَّبتُ به ثُمَّ جرَّبت

فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمْكَنَه منه، فضربه به حتَّى برد، وفرَّ الآخر يعدو حتَّى بلغ المدينة، فدخل المسجد.

فقال رسول الله ﷺ حين رآه: لقد رأى هذا ذُعْراً.

فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: قُتِلَ والله صاحبي، وإني لمقتول.

فجاءه أبو بصير، فقال: يا نبيَّ الله، قد والله، أوفَى الله ذِمَّتَك، قد رددتني إليهم فأنجاني الله منهم.

فقال النبي ﷺ: ويلُ أُمِّهِ مِسْعَرَ حَربٍ لَوْ كان له أحد.

فلما سمع ذلك عرف أنَّه سيَرُدُّه إليهم، فخرج حتَّى أتى سِيفَ البحر، وينفلتُ منهم أبو جندل بن سهل، فلحق بأبي بصير، فلا يخرج من قريش رجل قد أَسْلَمَ إلا لحق بأبي بصير، حتَّى اجتمعت منهم عصابة، فوالله، لا يسمعون بعيرٍ لقريش خرجت إلى الشام إلاَّ اعترضُوا لها، فقتلوهم وأخذوا أموالهم.

فأرسلت قريشٌ إلى النبي ﷺ تناشِدُهُ اللهَ والرَّحم لما أرسل إليهم، فمَنْ أتاه منهم فهو آمن، فأنزل الله عز وجل:

﴿هُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً ﴿٢٤﴾ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ

الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾[1].

وكانت حميتُهم أنهم لم يُقِرُّوا أنه نبي الله، ولم يُقِرُّوا بسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت.

*****

من وقائع الحديبية:

وكان مما وقع في الحُدَيْبِيَة أمورٌ يجب أن تُذْكَر.

١ - عَطِشَ الناسُ يوم الحُدَيْبِيَة:

روى البخاري عَنْ جَابِرٍ قَالَ:

«عَطِشَ النَّاسُ يَوْمَ الحُدَيْبِيَةِ وَالنَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ يَتَوَضَّأُ منها، إِذْ جَهِشَ النَّاسُ[2] فقال ﷺ: مَالَكُمْ؟ قَالُوا: لَيْسَ عِنْدَنَا مَاءٌ نَتَوَضَّأُ وَلاَ نَشْرَبُ إِلاَّ مَا بَيْنَ يَدَيْكَ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي الرَّكْوَةِ، فَجَعَلَ المَاءُ يَثُورُ بَيْنَ أَصَابِعِهِ أَمْثَالَ العُيُونِ، فَشَرِبُوا وَتَوَضَّأُوا، وكانوا خَمْسَ عَشْرَةَ مئة»[3].

٢ - نزول المطر:

وفي هذه الغزوة أصابهم ليلة مطرٌ، فلما صلى النبي ﷺ الصُّبح قال:

«هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ

(١) الفتح: ٢٤ - ٢٦.
(٢) جهش الناس: أي أسرعوا لأخذ الماء.
(٣) البخاري - كتاب المناقب، حديث رقم ٣٣١١.

بِي وَكَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ بِنَوْءِ[١] كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي وَمُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ»[٢].

٣ - نزول سورة الفتح:

وفيها أُنْزلت سورةُ الفتح، نزلت بعد مُنصرفه ﷺ من الحُدَيْبِيَة، وذلك عند كراع الغميم[٣] فقرأها ﷺ وهو على راحلته، ومثل ذلك يُعَدُّ مدنياً على المشهور. وهو أن المدني ما نزل بعد الهجرة.

٤ - دخول خُزاعة في عهد رسول الله:

وفيها دخلت خزاعةُ في عهد وعَقْد رسول الله ﷺ، ودخلت بنو بكر في عَقْد قريش وعهدهم، وكان الشرط أنَّ مَنْ شاء أن يدخل في عَقْده ﷺ دخل، ومَنْ شاء أن يدخل في عَقْد قرش دخل.

الحديبية والفتح العظيم:

هذا.. وقد خَفِي كون ما في الحُدَيْبِيَة فتحاً على بعض الصحابة، حتَّى بيَّنَهُ رسولُ الله ﷺ.

أخرج البيهقي عن عُروة قال:

أقبل رسولُ الله ﷺ راجعاً، فقال رجلٌ من أصحاب رسول الله ﷺ: والله، ما هذا بفَتْح، لقد صُدِدْنَا عن البيت، وصُدَّ هَدْيُنَا، وعكَفَ رسولُ الله بالحديبية، وردَّ رجلين من المسلمين خرجا.

فبلغ رسولَ الله ﷺ ذلك فقال: بئس الكلام هذا، بل هو أعظم الفتح، لقد رضي المشركون أن يدفعوكم بالرَّاح عن بلادهم ويسألونكم القضية، ويرغبون

---

(١) الأنواء: كواكب كانوا ينسبون نزول المطر إليها.

(٢) البخاري - كتاب الأذان، حديث رقم ٨٠١، كتاب الجمعة، حديث رقم ٩٨٠.

(٣) الغميم: مكان قرب مكة.

إليكم في الأمان، وقد كرهوا منكم ما كرهوا، وقد أظفركم الله عليهم، وردَّكم سالمين غانمين مأجورين، فهذا أعظم الفتح.

أنسيتم يوم أُحُد، إذ تُصعِدُون ولا تَلوُون على أحد، وأنا أدعوكم في أخراكم؟!

أنسيتم يوم الأحزاب، إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، وتظنون بالله الظنونا؟!

قال المسلمون: صدقَ الله ورسولُه هو أعظم الفتوح، والله يا نبي الله، ما فكَّرنا فيما ذكرتَ، ولأَنْتَ أعلم بالله وبالأمور منَّا.

وذكر ابن القيم في كتابه [زاد المعاد] فَصْلاً في الإشارة إلى بعض الحِكَم التي تضمنتها هذه الهُدنة، قال:

وهي أكبر وأجلُّ من أن يُحيط بها إلا الله الذي أحْكَم أسبابَها، فوقعت الغايةُ على الوجه الذي اقتضته حكمته وحَمدُه.

فمنها: أنها كانت مُقَدِّمة بين يدي الفتح الأعظم الذي أعزَّ الله به رسولَه وجندَه، ودخل الناس به في دين الله أفواجًا، فكانت هذه الهدنةُ بابا لَه، ومفتاحاً ومُؤذناً بين يديه، وهذه عَادةُ الله - سبحانه - في الأمُور العظام التي يقتضيها قَدراً وشرعاً، أن يوطِّئ لها بين يديها مقدمات وموطِّئات تُؤْذنُ بها وتدلُّ عليها.

ومنها: أن هذه الهُدنة كانت من أعظم الفتوح، فإنَّ الناس أَمِن بعضُهم بعضاً، واختلط المسلمون بالكفار، وبادءوهم بالدعوة، وأسمعوهم القرآن، وناظروهم على الإسلام جَهْرة آمنين.

وظهر مَنْ كان مُختفياً بالإسلام، ودخل فيه في مُدَّة الهُدنة مَنْ شاء أنْ يدخل، ولهذا سمَّاه اللهُ فتحًا مبينًا. قال ابن قتيبةَ: قضينا لك قضاءً عظيما، وقال مجاهد: هو ما قضى الله له بالحديبية.

وحقيقة الأمر أن الفتح - في اللغة - فَتْحُ المُغْلَق، والصُّلح الذي حصل مع المشركين بالحديبية كان مسدودًا مُغلقًا حتَّى فتحه الله، وكان من أسباب فتحه صَدُّ رسول الله ﷺ وأصحابه عن البيت.

وكان - في الصورة الظاهرة - ضيماً وهضماً للمسلمين، وفي الباطن عزًّا وفتحًا ونصرًا.

وكان رسول الله ﷺ ينظر إلى ما وراءهُ من الفتح العظيم والعزّ والنصر من وراء ستر رقيق، وكان يُعطي المشركين كُلَّ ما سألوه من الشروط التي لم يحتملْها أكثرُ أصحابه ورؤوسهم، وهو ﷺ يعلم ما في ضمن هذا المكروه من محبوب ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[1].

وربَّما كان مكروهُ النفوس إلى مَحْبُوبِها سبباً ما مثلُه سَبَبٌ، فكان يدخُلُ على تلك الشروط دخولَ واثِقٍ بنصر الله له وتأييده، وأنَّ العاقبة له، وأن تلك الشروط واحتمالها هو عينُ النصر، وهو من أكبر الجند الذي أقامه المشترطون ونَصبُوه لحربهم وهم لا يشعرون، فَذَلُّوا من حيث طلبوا العِزَّ، وقُهِرُوا من حيثُ أظهروا القدرة والفخر، وعزَّ رسول الله ﷺ وعساكرُ الإسلام من حيث انكسروا لله، واحتملوا الضَّيْم له وفيه، فَدَار الدَّوَر، وانعكس الأمر، وانقلب العِزُّ بالباطل ذُلاً بحقٍ، وانقلبت الكسرة لله عزًّا بالله، وظهرت حكمة الله وآياتُه وتصديقُ وَعْده، ونصرةُ رسوله على أتمِّ الوجوهِ وأكملها التي لا اقتراح للعقول وراءها.

ومنها: ما سبَّبَهُ الله - سبحانه - للمؤمنين من زيادة الإيمان، والإذعان والانقياد على ما أحبُّوا وكرهوا، وما حصل لهم في ذلك من الرِّضى بقضاء الله، وتصديق مَوْعُودِه، انتظار ما وُعدوا به، وشهودِ منِّةِ الله ونعمته عليهم بالسَّكينة التي أنزلها في قلوبهم، أحوج ما كانوا إليها في تلك الحال التي

(١) البقرة: ٢١٦.

تَزَعْزَعُ لها الجبالُ، فأنزل الله عليهم من سكينته ما اطمأنت به قلوبُهم، وقويت به نفوسُهم، وازدادوا به إيماناً.

ومنها: أنَّه سبحانه جعل هذا الحُكم - الذي حُكم به لرسوله وللمؤمنين - سببًا لما ذكره من المغفرة لرسوله ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر، ولإتمام نعمته عليه، ولهدايته الصراطَ المستقيم، ونصره النصر العزيز، ورضاه به، وانشراح صدره به، مع ما فيه من الضيم وإعطاء ما سألوه كان سبباً من الأسباب التي نال بها الرسولُ ﷺ وأصحابُه ذلك، ولهذا ذكره الله - سبحانه - جزاءً وغايةً، وإنما يكون ذلك على فِعْلٍ قام بالرسول والمؤمنين عند حُكمه تعالى وفتحه.

وتأمل كيف وصف - سبحانه - النَّصْر بأنه عزيزٌ في هذا الموْطن، ثُمَّ ذكر إنزال السكينة في قلوب المؤمنين في هذا الموطن الذي اضطربت فيه القلوبُ، وقَلِقَتْ أشَدَّ القلق، فهي أحوجُ ما كانت إلى السكينة، فازْدَادُوا بِهَا إيمانًا إلى إيمانهم.

ثم ذكر - سُبحانه - بيعتَهم لرسوله، وأكَّدها بكونها بيعَةً له - سبحانَه - وأن يَدَهُ تعالى كانت فوق أيديهم، إذ كانت يدُ رسول الله ﷺ كذلك - وهو رسولُه ونبيُّه - فالعقد معه عَقْدٌ مع مُرسِلِه، وبيعته بيعته، فمَنْ بايعه فكأنما بايع الله، ويَدُ الله فوق يده.

ثُمَّ أخبر أنَّ ناكثَ هذه البيعَة إنَّما يعودُ نكثُه على نَفْسه، وأنَّ للموفِّي بها أجرًا عظيمًا، فكُلُّ مؤمن قد بايع الله على لسان رسوله بيعة على الإسلام وحقوقه، فناكِث ومُوفٍ.

ثم ذكر سبحانه حال من تخلَّف عنه من الأعراب، وظنَّهم أسوأ الظَّنّ بالله أنه يخذلُ رسوله وأولياءَه وجندَه، ويُظْفِرُ بهم عَدُوَّهم، فلن ينقلبوا إلى أهليهم، وذلك من جهلهم بالله وأسمائِه وصفاتِه وما يليقُ به، وجهلهم برسوله وما هو أهْلٌ أنْ يُعَامِلَهُ به ربُّه ومولاه.

ووعدهم - سبحانه - مغانمَ كثيرةً يأخذونها، وأخبرهم أنَّه عجَّل لهم هذه الغنيمة وفيها قولان:

أحدهما: أنها الصُّلح الذي جرى بينهم وبين عدوهم، والثاني: أنها فتحُ خيبر وغنائمُها.

ثم قال: ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ﴾[1].

فقيل: أيدي أهل مكة أنْ يُقاتلوهم.

وقيل: أيدي اليهود حين هَمُّوا بأن يغتالوا مَنْ بِالمدينَة بعد خروج رسول الله ﷺ بمَنْ معه من الصحابة منها.

وقيل: هم أهل خيبر وحلفاؤهم الذين أرادوا نصرهم من أَسَد وغطفان. والصحيح تناول الآية للجميع.

وقوله: ﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ قيل: هذه الفعلة التي فعلها بكم، وهي كفُّ أيدي أعدائكم عنكم مع كثرتهم، فإنَّهُمْ - حينئذ وهم أهلُ مكة ومَنْ حولها، وأهلُ خيبر ومَنْ حولها، وأسدٌ وغَطَفَانَ، وجمهورُ قبائل العرب كانوا أعداءً لهم - وهم بينَهم كالشَّامَةِ، فلم يَصلُوا إليهم بسوء.

فمن آيات الله - سبحانه - كفُّ أيدي أعدائهم عنهم، فلم يصلُوا إليهم بسوء مع كثرتهم وشدة عداوتهم، وتوَلَّى حراستهم وحفظَهم في مشهدهم ومغيبهم.

وقيل: هي فتح خيبر، جعلها آيةً لعباده المؤمنين وعلامةً على ما بعدها من الفتوح.

فإنَّ الله - سبحانه - وعدهم مغانم كثيرة، وفُتوحاً عظيمة، فعجَّل لهم فتح خيبر وجعلها آية لما بعدها، وجزاءً لصبرِهم ورضاهم يوم الحُدَيْبيَة وشكراناً،

---

(١) الفتح: ٢٠.

ولهذا خَصَّ بها وبغنائمها مَن شهد الحديبية ثُمَّ قال: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[١].

فجمع لهم - إلى النَّصْر والظَّفر والغنائم - الهداية، فجعلهم مَهْديين منْصُورين غانمين.

ثُمَّ وعدهم مغانمَ كثيرة وفتوحًا أخرى لم يكونوا - ذلك الوقت - قادرين عليها، فقيل: هي مكةُ، وقيل: هي فارس والروم، وقيل: الفتوحات التي بعد خَيْبَر من مشارق الأرض ومغاربها.

ثُمَّ أخبر - سبحانه - أن الكفار لَوْ قاتَلوا أولياءَه لَوَلَّى الكفارُ الأدبار غير منصورين، وأن هذه سُنَّتَه في عباده قبلهم، ولا تبديل لسنَّته.

ثُمَّ ذكر - سبحانه - أنه هو الذي كَفَّ أيدي بعضهم عن بعض، من بعد أن أظْفَرَ المؤمنين بهم لِمَا له في ذلك من الحِكَم البالغة التي منها:

- أنه كان فيهم رجال ونساء قد آمنوا، وهم يكتمون إيمانَهم، لم يعلم بهم المسلمون، لو سلَّطَكم عليهم لأصبتم أولئك بمَعَرَّة الجيش[٢] وكان يصيبكم منهم معرَّة العدوان والإيقاع بمَن لا يستحق الإيقاع به.

وذكر - سبحانه - حصول المَعَرَّة بهم من هؤلاء المستضعفين المستخفين بهم، لأنها مُوجب المَعَرّة الواقعة منهم بهم.

وأخبر - سبحانه - أنهم لو تزيلوا، وتميَّزوا منهم لعَذَّبَ أعداءَه عذابًا أليمًا في الدنيا، إمَّا بالقتل والأسْر وإمَّا بغيره.

ولكن دفع عنهم هذا العذاب لوجود هؤلاء المؤمنين بين أظهرهم، كما كان يدفع عنهم عذاب الاستئصال ورسولُه بين أظهرهم.

---

(١) الفتح: ٢٠.

(٢) مَعَرَّة الجيش: وطْأَتُهم مَنْ مَرُّوا به وإصابتهم إياهم في حَرِيمِهم وأَمْوالِهم وزُروعِهم بما لم يؤذن لهم فيه.

ثُمَّ أخبر - سبحانه - عمَّا جعله الكفارُ في تحولهم من حَمِيَّة الجاهلية التي مصدرها الجهلُ والظلمُ، والتي لأجلها صدُّوا رسولَه وعبادَه عن بيته، ولم يُقرُّوا ببسم الله الرحمن الرحيم، ولم يُقرُّوا لمحمد بأنه رسول الله مع تحققهم صِدْقَه وتيقنهم صحة رسالته بالبراهين التي شاهدوها وسمعوا بها في مُدَّة عشرين سنة.

وأضاف هذا الجَعْلَ إليهم وإن كان بقضائه وقَدَره، كما يُضاف إليهم سائرُ أفعالهم التي هي بقُدرتهم وإرادتهم.

ثُمَّ أخبر - سبحانه - أنه أنزل في قلب رسوله وأوليائه من السكينة ما هو مقابل لما في قلوب أعدائه من حَمِيَّة الجاهلية.

فكانت السكينةُ حظَّ رسوله وحِزْبه، وحَمِيَّة الجاهلية حَظُّ المشركين وجندهم ثُمَّ ألزم عبادَه المؤمنين كلمةَ التَّقْوَى، وهي جنسٌ يعُمّ كُلَّ كلمةٍ يُتَّقَى الله بها، وأعلى نوعها كلمةُ الإخلاص وقد فُسِّرت ببسم الله الرحمن الرحيم، وهي الكلمة التي أبَتْ قريشٌ أن تلتزمها، فألزمها اللهُ أولياءَه وحزبَه.

وإنما حَرَمها أعداءه صيانةً لها عن غير كُفئها، وألزمها من هو أحقُّ بها وأهلها، فوضعها في موضعها، ولم يضيعها بوضعها في غير أهلها، وهو العليم بمحالِّ تخصيصه ومواضعه.

ثُمَّ أخبر - سبحانه - أنه صَدَق رسولَه رؤياه في دخولهم المسجد آمنين، وأنه سيكون ولا بُدَّ، ولكن لم يكن قد آنَ وقت ذلك في هذا العام، والله - سبحانه - عَلِم من مصلحة تأخيره إلى وقته ما لم تعلموا أنتم، فأنتم أحببتم استعجال ذلك، والربُّ - تعالى - يعلم من مصلحة التأخير وحكمته ما لم تعلموه، فقدَّم بين يدي ذلك فَتْحاً قريبًا، توطئةً له وتمهيدًا.

ثُمَّ أخبرهم بأنه هو الذي أرسل رسولَه بالهُدى ودين الحق ليُظهرَه على الدين كُلِّه، وقد تكفَّل الله لهذا الأمر بالتمام والإظهار مع جميع أديان أهل الأرض.

ففي هذا تقوية لقلوبهم، وبشارة لهم وتثبيت، وأن يكونوا على ثقة من هذا الوعد الذي لا بُدّ أن يُنْجِزَه، فلا تظنوا أن ما وقع - من الإغماض والقهر يوم الحديبية - نُصْرَةً لعَدوه، ولا تخلِّياً عن رسوله ودينه، كيف وقد أرسله بدينه الحق، وَوَعَدَه أن يُظْهِرَه على كُلِّ دين سواه.

ثُمَّ ذكَّر - سبحانه - رسولَه وحِزْبَه الذين اختارهم له، ومدَّحهم بأحسن المَدْح، وذكر صفاتهم في التوراة والإنجيل، فكان في هذا أعظم البراهين على صِدْق مَن جاء بالتوراة والإنجيل والقرآن، وأن هؤلاء هم المذكورون في الكتب المتقدمة بهذه الصفات المشهورة فيهم[1].

*****

(١) زاد المعاد: ٢/١٨٩ - ١٩٢.